ثبات الأخلاق

لو أنَّني سُئلتُ أن أُجمل فلسفةَ الدِّينِ الإسلاميِّ كلَّها في لفظين ؛ لقلتُ : إنَّها ثباتُ الأخلاق . ولو سُئل أكبرُ فلاسفة الدُّنيا أن يُوجِزَ علاجَ الإنسانيَّة كلَّه في حرفين ؛ لما زاد على القول : إنَّه ثباتُ الأخلاق . ولو اجتمع كلُّ علماء أوربة ؛ ليدرسوا المدنيَّة الأوربيَّةَ ، ويَحصُرُوا ما يُعْوِزُها في كلمتين ؛ لقالوا : ثباتُ الأخلاق .

فليس ينتظرُ العالَمُ أنبياءَ ، ولا فلاسفةً ، ولا مصلحين ، ولا علماء يُبدعون له بِدْعاً جديداً ؛ وإنَّما هو يترقَّب مَنْ يستطيع أن يفسِّرَ له الإسلامَ هذا التَّفسير ، ويُثْبِتَ للدُّنيا : أنَّ كلَّ العبادات الإسلاميَّة هي وسائلُ عمليَّةٌ ، تمنع الأخلاقَ الإنسانيَّة أن تتبدَّلَ في الحيِّ ، فيخلَعَ منها ، ويَلْبَسَ ؛ إذا تبدلتْ أحوالُ الحياة ، فصعدَت بإنسانها ، أو نزلت . وأنَّ الإسلام يأبَى على كلِّ مسلمٍ أن يكونَ إنسانَ حالته التي هو فيها من الثَّروة ، أو العلوم ، ومن الارتفاع ، أو الضَّعَة ، ومن خمولِ المنزلة ، أو نَباهتِها ؛ ويوجبُ على كلِّ مسلمٍ أن يكون إنسانَ الدَّرجة التي انتهى إليها الكونُ في سموِّه ، وكماله ، وفي تقلُّبِهِ على منَازلِهِ بعد أن صُفِّي في شريعةٍ بعد شريعةٍ ، وتجربةٍ بعد تجربة ، وعلمٍ بعد علم .

انتهت المدنيَّةُ إلى تبدُّل الأخلاق بتبدُّل أحْوال الحياة ، فمن كان تقيّاً على الفقر ، والإملاق[1] ، وحَرَمه الإعسارُ فُنونَ اللَّذة ، ثُمَّ أيسرَ من بعدُ ؛ جازَ له أن يكونَ فاجراً على الغنى ، وأن يتمسَّحَ لفُجوره على مَدِّ ما يتطوَّحُ به المال ، وإن أصبح في كلِّ دينارٍ من ماله شقاءُ نفسٍ إنسانيَّةٍ ، أو فسادُها .

ومن وُلد في بطن كُوخٍ ، أو على ظَهرِ الطَّريق ؛ وجب أن يبقى أرضاً إنسانيَّةً ؛ كأنَّ الله ـ سبحانه ـ لم يَبْنِ من عظامه ، ولحمِه ، وأعصابهِ إلا خَرِبةً آدميَّةً من غير هندسةٍ ، ولا نظامٍ ، ولا فنٍّ . . . ثم يقابله مَن وُلِدَ في القصر ، أو شِبه القصر ، فله حكمٌ آخر ، كأنَّ اللهَ ـ سبحانَه ـ قد ركَّب من عظمه ، ودمه ، وتكوينهِ آيةً هندسيَّةً ، وأعجوبةَ فنٍّ ، وطُرْفَةَ تدبيرٍ ، وشيئاً مع شيءٍ ، وطبقةً على طبقة .

---

(١) « الإملاق » : الافتقار .

ولكنَّ **الإسلام يقرِّر ثَباتَ الخلُق ، ويُوجبه ، ويُنشئُ النَّفسَ عليه ، ويجعله في حِياطة المجتمع** ، وحراستهِ ، لأنَّ هناك حدوداً في الإنسانيَّة تتميَّز بحدودٍ في الحياة ، ولا بدَّ من الضَّبط في هذه ، وهذه ، حتَّى لا يكونَ وَضْعٌ إلا وراءه تقديرٌ ، ولا تقديرٌ إلا معه حكمةٌ ، ولا حكمةٌ إلا فيها مصلحةٌ ، وحتى لا تعلوَ الحياةُ ، ولا تنزلَ إلا بمثل ما ترى من كِفَّتَيْ ميزانٍ شُدَّتا في عَلاَقَةٍ تجمعهما ، وتحرِّكُهما معاً ، فهي بذاتها هي التي تنزلُ بالنَّازل ؛ لتَدُلَّ عليه ، وتَشِيلُ بالعالي لتبين عنه ؛ **فالإسلامُ من المدنيَّة هو مدنيَّةُ هذه المدنيَّة** .

* * *

إنَّها لن تتغيَّرَ مادةُ العظم ، واللَّحم ، والدَّم في الإنسان ، فهي ثابتةٌ مقدَّرةٌ عليه ، ولن تتبدَّلَ السُّنَنُ الإلهيَّةُ ؛ الَّتي تُوجدها ، وتُفنيها فهي مُصرِّفةٌ لها ، قاضيةٌ عليها ؛ وبين عمل هذه المادَّة وعملِ قانونِها فيها تكونُ أسرارُ التَّكوين ، وفي هذه الأسرارِ تجد تاريخَ الإنسانيَّة كلَّه سابحاً في الدَّم .

هي الغرائز تعمل في الإنسانيَّة عمَلَها الإلهيَّ، وهي محدَّدةٌ محكَمَةٌ على ما يكونُ من تَعاديها ، واختلافِ بينِها ، وكأنَّها خُلقت بمجموعها لمجموعها ، ومن ثَمَّ يكون الخُلق الصَّحيحُ في معناه قانوناً إلهيّاً على قوَّةٍ كقوَّة الكون ، وضبطٍ كضبطه .

وبهذه القوَّة وهذا الضَّبطِ يستطيع الخلقُ أن يحوِّلَ المادَّة ؛ الَّتي تعارضه إذا هو اشتدَّ ، وصَلُب ، ولكنَّه يتحوَّلُ معها ؛ إذا هو لانَ ، أو ضعُف . فهو قَدَرٌ إلا أنَّه في طاعتِك ؛ إذ هو قوَّةُ الفَصْل بين إنسانيَّتِك ، وحيوانيَّتك ، كما أنَّه قوةُ المَزْج بينهما ، كما أنَّه قوةُ التَّعديل فيهما ، وقد سُوِّغَ القُدرةُ على هذه الأحوالِ جميعاً ، ولولا أنَّه بهذه المثَابةِ ؛ لعاش الإنسانُ طولَ التَّاريخ قبل التَّاريخ ؛ إذ لن يكونَ له حينئذٍ كَوْنٌ تؤرِّخُ فضائلُه ، أو رذائلُه بمدحٍ ، أو ذمٍّ .

فلا عِبرة بمظهر الحياة في الفرد ؛ إذ الفردُ مقيَّدٌ في ذاتِ نفسه بمجموعٍ هو للمجموع ، وليس له وحده : فإنَّك ترى الغرائزَ دائبةً في إيجاد هذا الفرد لنوعه بسُنَنٍ من أعمالها ، ودائبةً كذلك في إهلاكه في النَّوع نفسِه بسُننٍ أخرى ؛ فليس قانونُ الفرد إلا أمراً عارضاً ، كما ترى ، وبهذا يمكن أن يتحوَّلَ الفردُ على أسبابٍ مختلفةٍ ، ثُمَّ تبقى الأخلاقُ ؛ الَّتي بينه وبين المجموع ثابتةً على صورتها .

فالأخلاقُ على أنَّها في الأفراد هي في حقيقتها حُكْمُ المجتمع على أفراده ، فقِوامها بالاعتبار الاجتماعيِّ لا غير .

* * *

وحين يقع الفسادُ في المُجْمَع عليه من آداب النَّاس ، ويلْتوِي ما كان مستقيماً ، وتَشْتَبِهُ العاليةُ ، والسَّافِلة ، وتُطَّرَحُ المبالاةُ بالضَّمير الاجتماعيِّ ، ويقومُ وزنُ الحكم في اجتماعهم على القبيح ، والمنكَرِ ، وتجري العِبْرةُ فيما يعتبرونه بالرَّذائل ، والمحرَّمات ، ولا يُعجِبُ النَّاسَ إلا ما يفسِدُهم ، ويقع ذلك منهم بموقع القانون ، ويَحِلُّ في محلِّ العادة ؛ فهناك لا مِساكَ للخُلُقِ السَّليم على فردٍ ، ولا بدَّ من تحوُّل الفرد في حقيقته ؛ إذ كان لا يجيء أبداً إلا مُتَصدِّعاً في كلِّ مظاهره الاجتماعيَّة ، فأينما وقع من أعمال النَّاس ؛ جاء مكسوراً ، أو مثْلوماً[1] ، وكأنَّه منتقِلٌ من عالَمٍ إلى عالمٍ ثانٍ بغير نواميسِ الأوَّل .

وما شذَّ من هذه القاعدة إلا الأنبياء ، وأفرادٌ من الحكماء . فأمَّا أولئك فهم قوَّةُ التَّحويل في تاريخ الإنسانيَّة : لا يُبعَثُ أحدُهم إلا ليهيجَ به الهَيْجُ في التَّاريخ ، ويتَطرَّقَ به النَّاسُ إلى سُبُلٍ جديدةٍ ، كأنَّما تطردهم إليها العواصفُ ، والزَّلازلُ ، والبراكينُ ، لا شريعتُه ، ومبادئُه ، وآدابه . وأمَّا الحكماءُ النَّاضجون فهم دائماً في هذه الإنسانيَّةِ أمكنةٌ بشريَّةٌ مُحَصَّنة لحفظ كنوزها ، وإحرازِها في أنفسهم ، فلهم في ذاتِ أنفسهم عِصْمةٌ ، ومَنَعَةٌ كالجبال في ذات الأرض .

* * *

الأخلاقُ في رأيي هي الطَّريقة لتنظيم الشَّخصية الفَردةِ على مقتضى الواجبات العامَّة ، فالإصلاحُ فيها إنَّما يكونُ من عمل هذه الواجبات ؛ أي : من ناحية المجتمع ، والقائمين على حُكمه . وعندي : أنَّ للشعب ظاهراً ، وباطناً ، فباطُنه هو الدِّينُ ؛ الَّذي يحكم الفردَ ، وظاهرُه هو القانونُ ؛ الذي يحكم الجميع ، ولن يصلُحَ للباطن المتَّصل بالغيب إلا ذلك الحكمُ الدِّينيُّ المتَّصِلُ بالغيب مثلَه ؛ ومن هنا تتبيَّنُ مواضعُ الاختلالِ في المَدنيَّة الأوربيَّة الجديدة ؛ فهي في ظاهر الشَّعب دون باطنه ، والفردُ فاسِدٌ بها في ذاتِ نفسه ؛ إذا هو تحلَّل من الدِّين ، ولكنَّه مع ذلك

(١) « مثلوماً » : ثلم السيف : كَسَر حدَّه فصيَّره غيرَ ماضي الحَرْف .

يبدو صالحاً منتظماً في ظاهره الاجتماعيِّ بالقوانين ، وبالآداب العامَّة ؛ التي تفرضُها القوانين ، فلا يبرحُ هازئاً من الأخلاق ساخراً بها ؛ لأنَّها غير ثابتةٍ فيه ، ثُمَّ لا تكون عنده أخلاقاً يَعتَدُّ بها إلا إذا درَّتْ بها منافعُه ، وإلا فهي ضارَّةٌ ؛ إذا كانت منها مَضَرَّةٌ ، وهي مؤلمةٌ ؛ إذا حالتْ دون اللَّذات . ولا ينفكُّ هذا الفردُ يتحوَّل ؛ لأنَّه مطلَقٌ في باطنه ، غيرُ مقيَّدٍ إلا بأهوائه ، ونزعاته . وكلمتا الفضيلة ، والرَّذيلة معدومتان في لغة الأهواء ، والنَّزعات ؛ إذ الغايةُ المتاعُ ، واللَّذةُ ، والنَّجاحُ ، وليكن السَّببُ ما هو كائن .

وبهذا فلن تقومَ القوانينُ في أوربة إذا فَنِيَ المؤمنون بالأديان فيها ، أو كاثَرهم الملحدون ، وهم اليومَ يُبْصرون بأعينهم ما فعلت عقليَّةُ الحرب العظمى في طوائفَ منهم ، قد خَرِبَتْ أنفسُهم من إيمانهم فتحوَّلوا ذلك التحوُّلَ ؛ الذي أومأنا إليه ، فإذا أعصابُهم بعدَ الحرب ما تزال محارِبةً مقاتِلةً ترمي في كلِّ شيءٍ برُوح الدَّم ، والأشلاء ، والقبورِ ، والتعفُّنِ ، والبِلَى . . . وانتهت الحربُ بين أممٍ ، وأممٍ ، ولكنَّها بدأت بين أخلاقٍ ، وأخلاقٍ .

وقديماً حارب المسلمون ، وفتحوا العالم ، ودوَّخوا الأمم ؛ فأثبتوا في كلِّ أرضٍ هَدْيَ دينهم ، وقوَّةَ أخلاقهم الثَّابتة ، وكان من وراء أنفسِهم في الحرب ما هو من ورائها في السِّلم ؛ وذلك بثباتِ باطنهم ؛ الَّذي لا يتحوَّل ، ولا تستخفُّه الحياةُ بنزَقِها ، ولا تَتَسفَّهُهُ المدنيَّات ، فتحملهُ على الطَّيش .

ولو كانوا هم أهلَ هذه الحرب الأخيرة بكلِّ ما قَذَفَتْ به الدُّنيا ؛ لبقيتْ لهم العقليَّةُ المؤمنةُ القويَّة ؛ لأنَّ كلَّ مسلمٍ فإنَّما هو وعقليتُه في سلطانِ باطنه الثَّابتِ القارِّ على حدودٍ بيِّنةٍ مُحصَّلةٍ مقسومةٍ ، تحوطُها ، وتُمسكها أعمالُ الإيمان ؛ التي أحكمها الإسلامُ أشدَّ إحكامٍ بفَرْضها على النُّفوس منوَّعةً مكرَّرةً : كالصَّلاة ، والصَّوم ، والزَّكاة ؛ ليمنعَ بها تغيُّراً ، ويُحدثَ بها تغيُّراً آخر ، ويجعلَها كالحارسة للإرادة ، ما تزال تمرُّ بها ، وتتعهَّدها بين السَّاعة ، والسَّاعة(١) .

إنَّما الظَّاهرُ ، والباطنُ كالموج ، والسَّاحل ؛ فإذا جُنَّ الموجُ ؛ فلن يَضِيرَه ما بقي الساحلُ ركيناً ، هادئاً ، مشدُوداً بأعْضَادِه في طبقات الأرض . أمَّا إذا ماجَ

(١) فصَّلنا هذا المعنى في كثيرٍ من مقالاتنا ، كمقولة : حقيقة المسلم ، و : فلسفة الصوم ، وغيرها . (ع) .

السَّاحل فذلك أسلوبٌ آخرُ غير أسلوبِ البحار والأعاصير ؛ ولا جَرَمَ ألا يكونَ إلا خَسْفاً بالأرض ، والماء ، وما يتَّصلُ بهما .

* * *

في الكون أصلٌ لا يتغيَّر ولا يتبدَّل ، هو قانونُ ضبط القوَّة ، وتصريفها ، وتوجيهها على مقتضى الحكمة . ويقابلهُ في الإنسانِ قانونٌ مثلُه لا بدَّ منه لضبط معاني الإنسان ، وتصريفها ، وتوجيهها على مقتضى الكمال . وكلُّ فروضِ الدِّين الإسلاميِّ ، وواجباته ، وآدابه ، إنْ هي إلا حركةُ هذا القانون في عمله ، فما تلك إلا طُرُقٌ ثابتةٌ لخَلْق الحِسِّ الأدبيِّ ، وتثبيته بالتَّكرار ، وإدخاله في ناموسٍ طبيعيٍّ بإجرائه في الأنفُس مَجرى العادة ، وجعلهِ بكلِّ ذلك قوَّةً في باطنها ، فتُسمَّى الواجباتُ ، والآدابُ فروضاً دينيَّةً ؛ وما هي في الواقع إلا عناصرُ تكوين النَّفس العالية ، وتكون أوامرَ ؛ وهي حقائق(١) .

ومن ذلك أرانا نحن الشَّرقيين نمتاز على الأوربيِّين بأنَّنا أقربُ منهم إلى قوانين الكون ؛ ففي أنفسنا ضوابطُ قويَّةٌ متينةٌ ، إذا نحن أقررنا مدينتَهم فيها ـ وهي بطبيعتها لا تقبلُ إلا محاسنَ هذه المدنيَّة ـ سبقناهم ، وتركنا غبارَ أقدامنا في وجوههم ، وكنَّا الطَّبقةَ المُصفَّاةَ ؛ التي يَنْشُدونها في إنسانيَّتهم الرَّاهنةِ ، ولا يجدونها ، ونمتازُ عنهم من جهةٍ أخرى بأنَّنا لم نُنْشِئ هذه المدنيَّةَ ، ولم تنشئنا ، فليس حقّاً علينا أن نأخذَ سيِّئاتها في حسناتها ، وحماقَتها في حِكْمتها ، وتزويرَها في حقيقتها ؛ وأن نُسيغَ منها الحُلوةَ ، والمرَّة ، والنَّاضجة ، والفجَّة ؛ وإنَّما نحن نُحَصِّلها ، ونقتبسها ، ونَرتَجعُ منها الرَّجْعَةَ الحسنةَ ، فلا نأخذُ إلا الشَّيء الصَّالح مكانَ الشَّيء قد كان دونه عندنا ، ونَدَعُ ما سوى ذلك ؛ ثُمَّ لا نأخذ ، ولا نَدَعُ إلا على الأصول الضَّابطةِ المحكمة في أدياننا ، وآدابنا ؛ ولسنا مثلَهم متَّصلين من حاضر مدنيَّتهم بمثل ماضيهم ، بَيْدَ أنَّ العجَبَ الذي ما يفرَغُ عَجبي منه : أنَّ الموسومين منَّا بالتَّجديد لا يحاولون أوَّلَ وَهْلةٍ وآخرَها إلا هدمَ تلك الضَّوابط الَّتي هي كلُّ ما نمتازُ به ، والَّتي هي كذلك كلُّ ما تحتاج إليه أوربة لضبط

---

(١) هذا هو الذي ضلَّ عنه مصطفى كمال ، ومَنْ قلَّدوه ، ومَنْ انخدعوا فيه ، ولو فهمه حقَّ الفهم لجدَّد تركية ، وجدَّد العالم الإسلامي كلَّه ، ولكن الرجلَ غريبٌ عن هذه المعاني ، قصير النظر ، فما زاد على أن جدَّد ثوباً ، وقبَّعةً ! (ع) .

مدنيَّتها ، ويسمُّون ذلك تجديداً ، ولَهُوَ بأنْ يسمَّى حماقةً ، وجَهلاً أولى وأحقُّ .

أقول ، ولا أبالي : إنَّنا ابتُلينا في نهضتنا هذه بقومٍ من المترجمين قد احترفوا النَّقْلَ من لغات أوربة ، ولا عقلَ إلا عقلُ ما ينقلونه : فَصَنَعَتْهُمُ التَّرجمةُ من حيثُ يدرون ، أو لا يدرون صَنْعَةَ تقليدٍ مَحْضٍ ، ومُتَابَعةٍ مُسْتعبَدَةٍ ، وأصبح عقلُهم ـ بحكم العادة والطَّبيعة ـ إذا فكَّر ؛ انجذب إلى ذلك الأصلِ ، لا يخرجُ عليه ، ولا يتحوَّلُ عنه . وإذا صحَّ : أنَّ أعمالنا هي التي تَعملُنا ـ كما يقول بعضُ الحكماء ـ فهم بذلك خَطرٌ أيُّ خطرٍ على الشَّعب ، وقوميته ، وذاتيَّته ، وخصائصِه ، ويُوشِكُ إذا هو أطاعهم إلى كلِّ ما يدعُون إليه أن يترجموه إلى شعبٍ آخر .

* * *

إنَّ أوربة ، ومدنيَّتَها لا تساوي عندنا شيئاً إلا بمقدار ما تُحقِّق فينا من اتساعِ الذَّاتيَّةِ بعلومها ، وفنونها ، فإنَّما الذَّاتيَّةُ وحدها هي أساسُ قوَّتنا في النِّزاع العالميِّ بكلِّ مظاهره أيُّها كان ، ولها وحدَها ، وباعتبارٍ منها دون سواها نأخذ ما نأخذه من مدنيَّة أوربة ، ونُهمِل ما نُهمِل ؛ ولا يجوز أن نتركَ التثبُّتَ في هذا ، ولا أن نتسامَحَ في دقَّةِ المحاسَبة عليه .

فالمحافظةُ على الضَّوابط الإنسانيَّة القويَّة الَّتي هي مظاهرُ الأديان فينا ، ثُمَّ إدخالُ الواجبات الاجتماعيَّة الحديثةِ في هذه الضَّوابط لربطها بالعصر ، وحضارته ، ثُمَّ تنسيقُ مظهرِ الأمَّة على مقتضى هذه الواجباتِ والضَّوابط ، ثُمَّ العملُ على اتحادِ المشاعر ، وتمازُجِها لتقويم هذا المظهر الشَّعبيِّ في جملته بتقويم أجزائه ، هذه هي الأركانُ الأربعة ؛ التي لا يقومُ على غيرها بناءُ الشَّرق .

والإلحادُ والنَّزعاتُ السَّافلة ، وتخانيثُ المدنيَّة الأوربيَّة ؛ التي لا عملَ لها إلا أن تُظْهِرَ الخطرَ في أجمل أشكاله . . . . ، ثُمَّ الجهلُ بعلوم القوَّة الحديثة وبأصول التَّدبير ، وحياطة الاجتماع ، وما جرى هذا المجرى ، ثُمَّ التَّدليسُ على الأمَّة بآراء المقلِّدين ، والزَّائفين ، والمستعمِرين لمحْقِ الأخلاقِ الشَّعبيَّة القويَّة وما اتَّصل بذلك ، ثُمَّ التَّخاذلُ ، والشِّقاقُ ، وتدابُرُ[1] الطَّوائف ، وما كان بسبيلها ، تلك هي المعَاوِلُ الأربعةُ ؛ التي لا يَهدم غيرُها بناءَ الشَّرق .

فليكن دائماً شعارُنا نحن الشَّرقيِّين هذه الكلمة : **أخلاقُنا قبل مدنيَّتهم** .

---

(١) « تدابر » : تدابروا : تعادَوْا ، وتقاطعوا .